

هل ستتجه روسيا نحو تعزيز نفوذها في العراق؟

وائق السعدون

»

روسيا اليوم هي فقط انفصلت آيديولوجياً عن الاتحاد السوفياتي السابق، ولم تعد تهتم بقضايا دعم الأحزاب الشيوعية والحركة اليسارية في العالم، ولكنها في مضمار السياسة الدولية، تحرص على استعادة كل العلاقات التي بناها الاتحاد السوفياتي السابق مع دول العالم في حقبة الحرب الباردة.

»

ربما يكون توقيت السؤال في عنوان هذه القالة مفاجيء للبعض، وخاصة مع الانهيار الروسي التام، أو الانهيار الروسي التام، بمواجهة كبيرة مع الولايات المتحدة والغرب في حرب أوكرانيا. ولكن الرئيس بوتين عَوَّد العالم على أن يقوم بخطوة باتجاه تعزيز نفوذ روسيا في الشرق الأوسط، بعد كل مواجهة لروسيا مع الغرب في مجالها الجيوسياسي القريب. بعد أن قام بوتين بالسيطرة على منطقة القرم في 2014 ذَهَبَ في 2015 باتجاه التدخل العسكري الروسي الواسع في سوريا. وكان بوتين يقول لنفسه،

واللعالم، من خلال هذه السياسة، إنه جرب الاشتباك القريب مع الولايات المتحدة والغرب في ساحات الصراع المباشر، وكانت له القدرة على تحمل أعباء تلك الصراعات والتكييف مع قسوتها، فلا يأس بالسعى للحصول على بعض المكاسب الجيوستراتيجية، من خلال الانخراط ببعض الصراعات غير المباشرة مع الغرب، في مناطق التنافس الجيوسياسي العالمي، والتي تعد الشرق الأوسط من أهمها.

من يشجع بوتين على انتهاج مثل هذه السياسات، هي طبيعة النظام السياسي الحالي في روسيا، المبني على الصالحيات المطلقة للرئيس بوتين، وعلى فريق حكومي متسبع بأفكار هذا الرئيس، ومطبع لقراراته السياسية



العراق يحسب على المعسكر الغربي، وكان من الدول المؤسسة لمنظمة "الحلف المركزي" CENTO "CENTO Treaty Organization" أو كما عُرف بـ "Baghdad Pact" في بغداد، وهذا الحلف كان يُعرف في بادئ الأمر باسم منظمة حلف الشرق الأوسط "Middle East Treaty METO Organization" ، وهو حلف أنشئ عام 1955 للوقوف بوجه المد الشيوعي في الشرق الأوسط خلال الخمسينيات، وكان يتكون من العراق وتركيا وإيران وباكستان وبريطانيا. في عام 1955 قرر رئيس وزراء العراق آنذاك نوري السعيد قطع العلاقات مع موسكو؛ بسبب انتقادات الحكومة السوفيتية لقرار العراق بالدخول في حلف بغداد.

بعد سقوط النظام الملكي في العراق بانقلاب تموز 1958، الذي قام به الجنرال عبد الكريم قاسم، وتأسيس النظام الجمهوري في هذا البلد، أصبح واضحاً بأن العراق أصبح محسوباً على المعسكر الشرقي، وأن هذا البلد يتجه نحو تطوير علاقاته بالمعسكر الشرقي الذي يقوده الاتحاد السوفيتي، ولكن النظام الجديد لم ينسحب مباشرة من الحلف المركزي، خشيةً من ردة فعل الغرب وتركيا وإيران تجاه الأوضاع الجديدة في العراق بعد الانقلاب.

الحزب الشيوعي العراقي، الذي تأسس رسمياً في عام 1934، كان يعد من أكثر المنظمات الماركسية فاعلية وتأثيراً اجتماعياً في العالم العربي، وكتسب هذا الحزب قوة ونفوذاً كبيراً في الساحة العراقية خلال أول سنتين من الحكم الجمهوري، الجنرال

يتغللوا حتى الخليج العربي، وأن من يحكم هناك سيكون صاحب السيادة الحقيقية على العالم". لو دققنا في المناطق المذكورة في وصية بطرس الأكبر، لاستنتجنا بأن العراق هو البلد الوحيد الذي يحقق الشروط الجغرافية المطلوبة في تلك الوصية!

روسيا لها وجود عسكري الآن في سوريا، وفي ليبيا، وفي البحر الأحمر، ولها علاقات تعاون عسكري تتتطور باضطراد مع الجزائر ومصر ودول الخليج العربية، فإذا ما أرادت أن تبحث روسيا عن منطقة جديدة ما في الشرق الأوسط، لتعزز فيها الدور الروسي، هل سيكون العراق قفزة بوتين الجيوستراتيجية الجديدة في الشرق الأوسط؟ بوصف أن هذا البلد ما زال يصنف كساحة تنافس دولي وإقليمي! وما هي الحدود الممكنة التي يمكن أن يصل لها الدور الروسي المحتمل في العراق؟

إرث روسيا في العراق

العراق هو أقرب بلد عربي للحدود السوفيتية السابقة، تم تأسيس أول علاقات دبلوماسية بين العراق والاتحاد السوفيتي عام 1944. تنقل العراق خلال الحرب الباردة 1991-1947 بين معاشر تلك الحرب عدة مرات. 1947-1958 كان

ولو كان رمزاً، مقارنة بالتكلفة التي أرغمت روسيا على دفعها، فإن بوتين سيكافئ نفسه بالتوجه نحو تعزيز الوجود والدور الروسي في ساحة جديدة من مناطق التناقض الدولي والإقليمي في الشرق الأوسط. ليس بوتين وحده من يتبع هذه السياسة، فمنطقة الشرق الأوسط منذ قرون هي منصة التتويج لكل دولة تريد أن تعلن نفسها كقوة عالمية أو إقليمية.

ذكر الكاتب والصحفي البريطاني تيم مارشال John Marshall في كتابه "سجناء الجغرافيا" prisoners of Geography بأن قيصر روسيا الخامس بطرس الأكبر، المتوفى في عام 1725، قد دون في وصيته لأبنائه وأحفاده، بأن عليهم "الاقتراب كلما استطاعوا من القسطنطينية (استانبول) والهند، وأن عليهم إثارة الحروب باستمرار في تركيا وبلاط فارس، وأن عليهم أن



الشخص (بريماكوف) إلى بغداد في آذار 2003 للباحث مع القيادة العراقية حول كيفية تجنب الحرب التي كانت وشيكة، بالرغم من أن بريماكوف وقتها كان خارج العمل الحكومي.

روسيا اليوم هي فقط انفصلت آيديولوجياً عن الاتحاد السوفيتي السابق، ولم تعد تهتم بقضايا دعم الأحزاب الشيوعية والحركات اليسارية في العالم، ولكنها في مضمار السياسة الدولية، تحرص على استعادة كل العلاقات التي بناها الاتحاد السوفيتي السابق مع دول العالم في حقبة الحرب الباردة. الرئيس بوتين من أشد العجبين بأفكار الفيلسوف الروسي المعاصر ألكسندر دوغين، هذا الفيلسوف يرى بأن الصراع الحالي بين روسيا والولايات المتحدة هو صراعاً جيوسياسيّاً، وليس كما كان سابقاً صراعاً آيديولوجياً بين الليبرالية والشيوعية. صرح الرئيس بوتين في أحد المرات بأن "تفكر الإتحاد السوفييتي كان أكبر كارثة جيوبوليتيكية في القرن العشرين"!

فرضيات تعزيز النفوذ الروسي في العراق

هناك بواطنين رئيسيين متاحثان الآن للروس لزيادة نفوذهم في العراق؛ الاقتصاد، ومكافحة الإرهاب والأمن الإقليمي.

في المجال الاقتصادي، بلغ إجمالي الاستثمارات الروسية الحالية في قطاع الطاقة بالعراق 13 مليار دولار. روسيا لديها العديد من الشركات النفطية

عبد الرحمن عارف رئيساً للبلاد، واستمرت علاقات العراق بالسوفيت على وثيرتها السابقة. ثم تم اسقاط حكومة عبد الرحمن عارف بانقلاب تموز 1968، الذي جاء بحزب البعث إلى حكم العراق. استطاع البعثيون الاستفادة من فترة "التهديد" في الحرب الباردة وـ"الوفاق الودي" التي ساد بين العسكريين الغربي والشرقي خلال السبعينات، فأقام العراق خلال حكمهم علاقات جيدة مع دول الغرب، مع البقاء على العلاقات القوية الاستراتيجية مع الاتحاد السوفييتي.

في الوقت الذي كان فيه الإتحاد السوفييتي السابق يقترب من انهياره، حازت شؤون العراق على آخر الأدوار السوفييتية في الشرق الأوسط، حيث قدم ميخائيل غورباتشوف آخر الرؤساء السوفييتمبادرة لنزع فتيل أزمة الكويت ومنع حدوث الحرب، في قمة هلسنكي التي جمعته مع الرئيس الأمريكي جورج بوش (الأب) في أيلول 1990. ومن أجل العمل مع القيادة العراقية في ذلك الوقت على انجاح تلك المبادرة، بعد أن وافق العراقيون عليها، قام غورباتشوف آنذاك بإرسال يفجيني بريماكوف رئيس جهاز الاستخبارات الخارجية التابع لوكالة الاستخبارات السوفييتية المعروفة بالكيه. جي. بي. إلى بغداد عدة مرات (أصبح بريماكوف فيما بعد رئيساً لوزراء روسيا في عهد الرئيس الروسي بوريس يلتسين). لم تمنع تلك المبادرة حدوث الحرب، ولكنها مثلت موقفاً سوفييتياً متميزاً إلى جانب العراق. المفارقة أن الرئيس بوتين قام بإرسال نفس

قاسم لم يكن شيئاً، بل انه كان شخصية عسكرية لا تنتمي إلى أي جهة سياسية، ولكنه تقرب من الشيوعيين لزيادة شعبيته في الداخل، ولتقوية علاقة حكومته بالاتحاد السوفييتي السابق.

في 24 آذار 1959 أعلن الجنرال قاسم عن انسحاب العراق من حلف بغداد ومن جميع الاتفاques العسكرية السابقة مع بريطانيا والولايات المتحدة. هذه الخطوة كانت بداية تحول تسليح الجيش العراقي وتجهيزه وتدريبه بالكامل، من التسليح والتدريب الشرقي، وبشكل رئيس الاعتماد على السلاح والتدريب السوفييتي. في 1959 أيضاً تم توقيع اتفاقية بين العراق والاتحاد السوفييتي، قدمت بموجبها موسكو 137 مليون دولار لتطوير الاقتصاد العراقي (في ذلك الوقت يعد مبالغ كبيرة).

تم اسقاط الحكومة الجمهورية الأولى، وتم اعدام الجنرال قاسم في انقلاب شباط 1963، الذي جاء بالجنرال عبد السلام عارف إلى سدة الحكم في العراق. العلاقة المتينة بين عارف والزعيم المصري جمال عبد الناصر، الذي كان يعد الحليف الأقوى للسوفيت في المنطقة، وانتماء الاثنين للفكر القومي الاشتراكي، كانت سبباً مهماً في إبقاء العراق ضمن الفلك السوفييتي خلال حقبة عبد السلام عارف.

في نيسان 1966 قتل عارف في حادث تحطم طائرة مروحية في البصرة جنوب العراق، أصبح شقيقه الجنرال

في مجال الأمن الإقليمي، تزداد حالياً التهديدات الإيرانية لإقليم كردستان العراق، تحت ذريعة وجود فصائل مسلحة كردية مناوئة للنظام الإيراني في أراضي إقليم كردستان. التهديدات الإيرانية لإقليم كردستان انتقلت مؤخراً من مرحلة القصف المستمر (المدفعي، الصاروخي، بطائرات مسيرة) على مواقع في الإقليم، إلى مرحلة التهديد بالاحتياج البري للأراضي كردستان العراق.

في ظل التهاون واللامبالاة الأمريكية تجاه هذه التهديدات الإيرانية، وبحسنان متانة العلاقة بين روسيا وحكومة إقليم كردستان من جهة، ومتانة العلاقات الروسية-الإيرانية من جهة أخرى، يمكن لروسيا أن تطرح نفسها ك وسيط دولي (حامٍ) لأمن واستقرار إقليم كردستان العراق، من خلال وجود عسكري روسي في شمال العراق، يبدأ بدور قوات مراقبة دولية، وينتهي به المطاف إلى وجود عسكري روسي مؤثر في الساحة العراقية، يندمج لاحقاً مع الوجود والدور العسكري الروسي في سوريا.

بالطبع أن تنفيذ هذه الفرضيات للأدوار الروسية المحتملة مستقبلاً في العراق، تعتمد على ردود الأفعال الأمريكية-الغربية لهذه الاندفادات الجيوسياسية. الطبيعة تكره الفراغ، والروس متوجبين للأي فراغ يتركه الغرب والأمريكان في منطقة الشرق الأوسط وشمال أفريقيا. ■

واثق السعدون: باحث وأكاديمي من العراق، حاصل على الدكتوراه في تاريخ العلاقات الدولية، مدير قسم الدراسات العربية في مركز أورسما.

في مجال مكافحة الإرهاب والأمن الإقليمي، هنالك عدة منافذ محتملة لروسيا لتطوير نفوذها في العراق. في أيلول / سبتمبر 2015 أعلنت الحكومة العراقية رسمياً عن إنشاء مركز مشترك ببغداد لتنسيق وتبادل المعلومات الاستخباراتية، يضم ممثلي من وكالات الاستخبارات من العراق، روسيا، سوريا (نظام الأسد)، إيران. بعض المراقبين لهذه الخطوة أطلقوا عليها تحالف "1+4"، في إشارة لمعلومات عن وجود ممثلي من حزب الله اللبناني في هذا التحالف الاستخباراتي. وفقاً للبيان الصادر آنذاك عن قيادة العمليات المشتركة العراقية حول إنشاء هذا المركز الاستخباراتي المشترك، إن مهمة هذا المركز هي تنسيق التعاون المشترك وتداول المعلومات حول نشاطات تنظيم داعش الإرهابي، وغيرها من المنظمات الإرهابية التي تنشط في الساحتين العراقية وال叙利亚، وربط عمل هذا المركز مع غرف العمليات الروسية، السورية، الإيرانية في سوريا. وأشار بيان قيادة العمليات العراقية حول هذا المركز إلى "القلق المتزايد الذي يساور روسيا إزاء آلاف الإرهابيين الروس الذين يرتكبون أعمالاً إجرامية ضمن داعش". لطالما كانت مكافحة الإرهاب هي المنفذ (الذرعية) الأكثر استخداماً من روسيا، لزيادة نفوذها وتدخلاتها في منطقة الشرق الأوسط وشمال إفريقيا، وفي نفس السياق، وفي ظل حقيقة تراجع النفوذ الأمريكي-الغربي في العراق، وتعزيز نفوذ إيران، حلية سوريا، في هذا البلد، يمكن لروسيا أيضاً تعزيز نفوذها في العراق من خلال هذه البوابة.

العاملة في العراق منها "غازبروم Gazprom"، التي تمتلك حالياً حصة 40% من حقل بدرة النفطي في محافظة واسط، فضلاً عن مشاريعها في إقليم كردستان العراق. كذلك هنالك شركة "لوك أويل Lukoil" الروسية، التي تملك حالياً حصة 75% من مشروع حقل "غرب القرنة 2" النفطي في محافظة البصرة (جنوب العراق). حصلت لوك أويل على هذا العقد مع الحكومة العراقية ضمن جولات التراخيص النفطية عام 2009، وهو يمتد إلى 25 عام. شركة "Rosneft" الروسية هي الأخرى تمتلك حصة 40% من مشاريع أنابيب النفط في إقليم كردستان شمال العراق.

هنالك عقوبات أمريكية فرضت على شركة غازبروم منذ عهد الرئيس الأميركي السابق دونالد ترامب، لأن هذه الشركة الروسية هي المسئولة الرئيس لأنبوب الغاز "نورد ستريم 2" Nord Stream 2، الذي توقف عن العمل بسبب العقوبات الأمريكية. كذلك هنالك عقوبات أمريكية على شركة "Rosneft" منذ عام 2020، بتهمة أن هذه الشركة تساعد حكومة فنزويلا في التوسيط لبيع النفط الفنزويلي ونقله.

إلا أن هذه العقوبات المفروضة على الشركات النفطية الروسية لم تؤثر على استمرار عمل تلك الشركات في العراق. مما يدل على وجود تفاهمات واتفاقات سياسية غير معلنة بين روسيا والعراق. الأمر الذي يرجح فرضية أن تعمد روسيا إلى زيادة نفوذها الاقتصادي في العراق.